فصل في تمجيد الرقابة

محمد أبو معتوق

واحدٌ من المتيَّمين بالرقابة، أنا...

أيّاً كانت الجهةُ التي تَصْدر عنها هذه الرقابةُ.

ولأنَّني من محبِّي التقسيم والتصنيف، فإنَّني أحاول تقسيمَ الرقابة إلى صنفين.

ـ الصنف الأوّل: رقابةُ المؤسَّسات الرسميّة المصابة بالحكّة وجنونِ الارتياب.

ـ والصنف الثاني: رقابةُ الزوجات للأزواج.

ولأنَّني بالغُ التورُّط في الرقابتَيْن، بالغُ الخروج على العقود والعهود والمواضعات، تَنْهال عليَّ أفانينُ الرقابة من كلِّ حدب وصوب، وأُحسّ بالعيون والظنون تترصّد أنفاسي وهمساتي في كلّ حركة ومجال. ورغم ذلك أَشْعر بأنَّني من المتيَّمين بالرقابة، كما أسلفتُ. فالرقابة تَدْفع الكائنَ المراقَبَ إلى الإحساس بأنّه كائنٌ بالغُ الأهميّة، كائنٌ لا يَنْغلق بجلده على نفسه وروحه مثلَ كيس، وإنّما يتجاوز ذلك إلى التأثير والعبث بما يجاوره من كائنات وأكياس. وهذا فعلٌ لا تَغْفره المؤسَّساتُ المرتابةُ.. ولا الزوجاتُ المتيَّمات.

النقطة الثانية التي تَدْفعني إلى أن أكون متيّمًا بالرقابة هي أنّ الرقابة تولِّد فيَّ نقيضَها، وتَدْفعني إلى تجاوز شروطها ومحاذيرها. وبذلك وحده أتمكّن من تحدِّيها، ومتابعةِ الكتابة، والبقاءِ على قيد الحياة. فأنا عندما تنتابني الرقابةُ يتطاير من أمامي المكانُ والزمانُ، وأتحوّل إلى كائنٍ معلَّقٍ في الهواء يَنْتظر لحظةَ القبض عليه ليستعيد ذاتَه من الشتات.

أَسُوق هذه المقدّمةَ المُرْبكة لأُعْلن أنّني غيرُ متفرِّغ في هذه المداخلة للحديث عن رقابة الزوجات ودورها الكاسح في دفع الأزواج إلى طلب اللجوء العاطفيّ في جزر الواق الواق. وإنّما أنا مضطرّ إلى تلبية رغبة الصديق العزيز جمال باروت في الكتابة عن الرقابات الأخرى المتفرِّغة لمطاردة الإبداع، وهي رقاباتٌ تَخْترع محاذيرَها وشياطينَها ومخاوفَها بنفسها، وتضطرّ إلى تصديقها وبرمجتها من أجل دفع الآخرين إلى التعوُّد عليها والانصياع لها. هذه الرقابات تُفْلح في تشكيل مستعمَرات للمخاوف في وجدانات بعض الكتاب، فتتقوَّض مواهبُهم وتَنْشطر.

أقول هذا الكلام عن الرقابة والرقابيّين، من دون أن يكون في قصدي وظنّي صياغةُ قصاصٍ غاضبٍ من عمل هذه المؤسَّسات، قصاصٍ يَدْفعني إلى الصراخ في وجه سدَنتها: «الرقابة على الإبداع هي الجحيم!» وإنّما أقوله لأصوغ نمطًا من أنماط التعاطف الذي يُفْرح قلوبَ المؤسَّسات والحيتان.

ولكنْ قبل أن أشكّل هذا التعاطفَ لا بدّ من الخوض في أسبابه.

◆ ◆ ◆

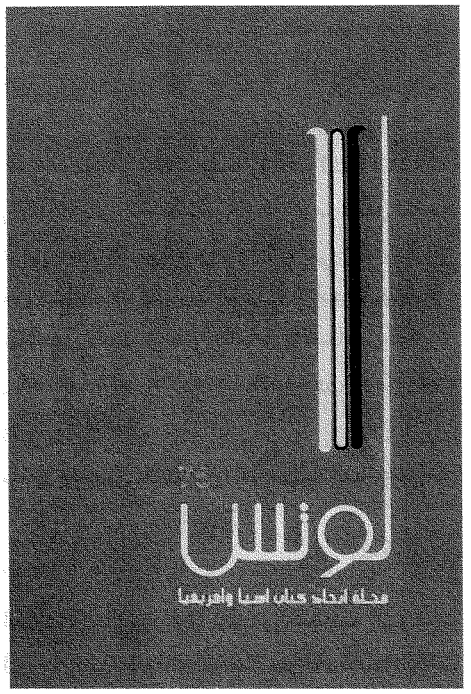

مُنع بسبب فوز قصتي بالجائزة، بدلاً من مسؤول الرقابة!

المؤسّسات الثقافيّة الحكوميّة في بلادنا لا تَمْتلك في حيازتها العامّة مثقفين حقيقيّين. ذلك لأنّ المثقف الحقيقيّ يَحْتاج إلى نمط مغايرٍ من الهواء. وعندما يوجد مثلُ هذا المثقف داخل المؤسّسة، فلأسبابٍ تتعلّق بالخطإ والاضطرار.

وعندما يحاول الرقيبُ تمريرَ كتابٍ مريبٍ أو نصٍّ مغامرٍ، أسهوًا كان هذا التمرير أم قصدًا، ويتمّ اكتشافُ التعارض الفاضح بين النصّ والمؤسّسة، يكون الهولُ وتتغيّر مكانةُ الرقيب ويتغيّر وزنُه وملامحُه. وعوضًا عن أن يكون من سَدَنة الجحيم، يصبح وقودًا له. ولذلك يُضْطرّ الرقيب إلى الحذر والتبصُّر والتكفير... هذا إذا كان رقيبًا عاديّاً. أما إذا كان من القدِّيسين فسيضطرّ إلى أن يَقْعد، ويُقْعد صاحبَ النصّ أمامه، ليعلنَ أمام الجدران والفراغ الذاهل أنّه واحدٌ من عشّاق النصّ ومن عشّاق كاتبه، وأنّه لم يَقْرأ نصّاً في أهميّة النصّ الذي رَفَضه «حبّاً بصاحبه وخوفًا على مستقبله!» ثم تَأخذه الحالُ، فيبكي ويتباكى، حتى يتفطَّر قلبُ الكاتب المبدع، ويَشْعر أنّه أَوْقَعَ في القارئ الرقيب حيفًا وظلمًا كبيريْن.

◆ ◆ ◆

كانت أولى المحاولات التي مُنِعَ لي نصٌّ فيها من التداول في مطلع التسعينيّات، حين مُنع توزيعُ العدد الخاص بمجلة **لوتس** التي تَصْدر في تونس. وقد تَضَمّن العددُ نتائجَ المسابقة القصصيّة التي أَعْلنتْ عنها المجلةُ، مع طبع نصوص القصص الفائزة. وقد كانت المصادفة فوزي بالجائزة الأولى عن قصتي «كرنڤال البطاطا.» غير أنّ العدد لم يُسْمح له بالدخول. وقد قمتُ بجهود مُضْنية للحصول على العدد، حتى تمكّنْتُ من ذلك بواسطة الصديق د. نضال الصالح الذي ذهب لاستلام جائزتِه في الرواية هناك.

عندما اطّلعتُ على العدد لم أجد فيه نصوصًا تُقْلق البالَ والأنظمةَ وتَدْفع إلى التشدُّد في المنع والإبادة وإطلاق الأحكام. لذلك انشغلتُ في البحث عن الدوافع الأخرى. وبعد لأْيٍ وصلتُ إلى نتائج بالغةِ الشفافيّة، تُبْهج قلبَ الرقباء. وقد كان ذلك عندما أَخْبرني أُولو العِلْم من المقرَّبين والأتباع أنّ مسؤول الرقابة على المطبوعات كان مضطرّاً إلى منع المجلة من التداول لأسباب تتعلّق بالكرامة الشخصيّة. وتتلخّص هذه الأسباب في أنّ مسؤول الرقابة كان قد تواضَعَ وكَتَبَ نصّاً شعريّاً، وشارك فيه في المسابقة التي أَعلنتْ عنها المجلةُ المذكورة. وعندما أتمّ الكتابة، جَمَع العاملين في إدارته وقَرأ عليهم القصيدة، فحلف له المستمعون الكرام أغلظَ الأَيْمان بأنّها ستكون القصيدة الفائزةَ بالمرتبة الأولى في أضعف الأحوال. فأَرْسل صاحبُنا القصةَ إلى اللّجنة، وتوكّل. وعندما وصلته النتائجُ فوجئ كثيرًا بوجود أسماء أخرى بدلاً منه، فقرّر من وقته وساعته مَنْعَ العدد من التداول لصيانة أذواق القرّاء الباقين على قيد الحياة.[1]

◆ ◆ ◆

بعد ذلك، يا سادة يا كرام، تتالت أشكالُ مَنْعِ نشرِ ما أكْتبه، وتكدّستْ أمامي النصوصُ المرفوضة بدواعٍ رقابيّة أكثر هولاً من الرقابات التي تَحُول دون حركة الكتاب المطبوع. لا شكّ أنّني خلال مسيرتي أفلحتُ في طباعة بعض النصوص الرزينة التي لا تَخْدش حياءَ المؤسّسات ولا الصبايا العذراوات؛ وأنا لذلك مغتبطٌ وأكاد أطير.

◆ ◆ ◆

١ ـ اتّصل محرّر الملفّ بالأستاذ عادل محمود مدير تحرير المجلة يومئذ، واستبينه عن مبرّر الرقابة في منع توزيع هذا العدد من مجلة **لوتس** في سورية، فأكّد أنّ الأمر يتعلّق باعتراض الرقابة على قصة محمد أبو معتوق المذكورة في الشهادة، والتي تعيد الآداب نشر أقسام منها. وقد أذن الأستاذ محمود للمجلة باستخدام شهادته (م. ج. ب).

تَنْتمي المؤسّسات الرقابيّة العربيّة إلى نمطيْن:

النمط الأول هو المؤسّسات الرقابيّة الثقافيّة التابعة للمؤسّسات الحكوميّة، وهي مؤسّسات تضع للثقافة والمعرفة شروطًا تَحُول بينها وبين الحياة والإبداع.

والنمط الثاني هو المؤسّسات الثقافيّة العريقة الخاصّة التي تَعْمل في لبنان، ولها رقاباتٌ أكثرُ انفتاحًا، ويتحدَّر أصحابُها من سلالات حملتْ على عاتقها مشاريعَ ثقافيّةً وتنويريّةً شكَّلَتْ ملامحَها وما صَدَرَ لها من مطبوعات. غير أنّ هذه المؤسّسات الثقافيّة الخاصّة تنازلتْ في معظمها عن مشروعها الثقافيّ، وتحوّلتْ إلى سوبر ماركت لإنتاج المطبوعات، وأصبحتْ مخاوفُها أكبرَ من مخاوف المؤسّسات الثقافيّة التابعة للحكومات، وذلك لتتجنّب سيفَ منع التداول المسلَّط عليها من رقابات الدول المجاورة التي تتفاعل بالأساطيل الكبرى وتخشى من أقلام الكتّاب. وعندما تَسُوق أمام دُور النشر الخاصة هذه بعضَ المخاوف، تَسُوق أمامَك أفدحَ المبرِّرات. ولذلك تَدْفع الثقافةُ الحقيقيّة، ويَدْفع الإبداعُ العظيم، أفدحَ الأثمان.

أما أنا فأحاول البحثَ عن الأعذار، متأمِّلاً الكأسَ من نصفها المغمور بالضوء والماء، مردِّدًا بعد رَفْضِ كلّ كتاب أنّ الرقابة الجائرة والبليدة تَدْفع المبدعَ إلى المزيد من الكتابة والمزيدِ من الحياة.

◆ ◆ ◆

في الختام، ها أنا أتذكّر بعضًا من كلمات أحد الكتّاب الفرنسيِّين الذين زاروا حلب والتقيتُ به أنا ولفيفٌ مندهشٌ من المثقفين المحليِّين. فعندما أَخَذَنا الحديثُ عن الرقابة الجائرة والمنع مأخذًا حرجًا، تأمَّلَنا الكاتبُ الفرنسيُّ المذكور وقال: «لعلّ القمع، والمنعَ، والرقابةَ الزائدة والناقصة، تَدْفعكم إلى اكتشاف موضوعات مؤثّرة للكتابة. أمّا نحن، وبسبب الحريّة الزائدة، وغيابِ الرقابات الجائرة، فلم نعد نجد في مجتمعاتنا موضوعاتٍ هامّةً لنكتب عنها.»

وعندما أتمّ حديثَه زفر زفرةً حزينةً، تمنّيتُ إثرها أن يخفِّف اللّهُ من معاناته، ويقيِّضَ له رقيبًا شهمًا يقوم بمنعه من التداول والحركة كما يَفْعل بكتّاب آخرين، فتتوفّرَ لهذا الأديب الفرنسيّ الحزين الفرصةُ للحصول على ما هبّ ودبّ من موضوعات.

حلب

محمد أبو معتوق

أديب سوريّ. من رواياته: **شجرة الكلام**، **والأسوار**، **ولحظة الفراشات**. ومن مجموعاته القصصيّة: **ليلة المغول**.